الرسول (ص) قدوة البشرية

معنى الأسوة.

عند الحديث عن النبي الأسوة (صلى ا عليه وآله) نجد أنّ بعض الآيات القرآنية تُبرز حقيقة الأسوة ومبادئها في كلمات موجزة، قال تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا}[5]، فهذه الآية تنطلق لترسم الخطوط العامة، التي تُشكل مبدأ الأسوة، الذي يُعبر عن الاقتداء والاتّباع لشخصية مؤهلة، تتصف بميزات خاصة.

أركان التأسي.

الأسوة في الآية المباركة تتألف من أركان ثلاثة:

الأول: مُتأسَى به، أي الشخصية التي يُقتدى بها.

الثاني: مُتأسِي وهو الشخص المقتدي بتلك الشخصية. الثالث: ما يُتأسى به، أي مجالات الأسوة.

ولا بد أن نذكر هذه الأركان الثلاثة بشيء من التفصيل:

الأول: المُتأسى به.

تبدأ الآية في الحديث عن الشخصية المقتدى بها، لتذكر أولَ خِصالها وهي كونها رسولاً من ا، {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ}، فالرسول يحمل ما تعنيه كلمة الرسالة من شمولية في التحلي بالكمالات المتعددة، من عصمة ووحي وغير ذلك، إلا أنّ الاتصاف بكل ذلك لا يعني أن تخرج الشخصية من جنسها البشري، بل تبقى على حالها، قال تعالى:{قُلْ إِنَّمَا أَنَا

بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ}[6]، فالرسول (صلى الله عليه وآله) بشر، يتميز بالوحي من الله تعالى، فهو ليس من جنس الملائكة، بل هو بشر في هذا الجانب، ليكون قريباً من أبناء جنسه، فيُبَلِّغ عن الله تعالى ويكون قدوة يَتأسى بها الناس، وهذا ما بيّنته الآية عندما قالت : {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ}، فعنوان الأسوة كان في شخص النبي (صلى الله عليه وآله) مقترناً مع وصفه بالرسول، مما يبين دور هذا الوصف للنبي (صلى الله عليه وآله) في حمل مسؤولية الرسالة والتبليغ وقيادة الأمة وهدايتها إلى الصراط المستقيم، قال تعالى: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ }[7]، لذا، أصبح وصف الرسالة لصيق بالأسوة، كما أنّ الاقتداء بشخص الرسول (صلى الله عليه وآله) في كل أقواله وأفعاله، { وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا }[8]، فما يصدر من النبي (صلى الله عليه وآله) فهو محل للقدوة والتأسي.

الركن الثاني: المتأسي.

هو ذلك الشخص المُقتدي بالرسل، الذي يتصف بخصال محددة ذكرتها الآية التي افتتحنا بها الحديث، قال تعالى: {لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا}، فالشخص المتأسي راجٍ لله واليوم الآخر، أي يملك عقيدة راسخة، يُؤمن من خلالها بالله تعالى، أي المبدأ، والآخرة أي المعاد، ثم يكون ذاكراً لله تعالى، فالإيمان بالله يدفع نحو الإيمان بالآخرة وهما معاً يدفعان نحو ذكر الله كثيراً، فمن كان لديه توحيدٌ نظريٌ يدفعه للاعتقاد بالآخرة ثم ينعكس هذا التوحيد ليصبح توحيداً عملياً يبدأ في باطن الإنسان ليُحرك فيه حضور الله تعالى في داخله، وبالتالي يدفع ـ هذا الحضور الإلهي في الباطن ـ الجوارح لاستشعار وجود الله عملياً من خلال قيام أعضائه بذكر الله، من خلال القول والعمل، المرضي لله تعالى، وعندها يتأهل للتأسي والاقتداء بالنبي (صلى الله عليه وآله).

الثالث: ما يُتأسى به (مجال التأسي).

مجالات التأسي والاقتداء، التي نفهمها من قوله تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ}، هي عنوان الرسول، فكون المقتدى به رسولاً، أي إنه صاحب رسالة يُبلغها ويقتدي بها الآخرون، ومجالات هذه الرسالة ما أوضحه القرآن، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ}[9] ، فرسالة النبي (صلى الله عليه وآله) تحوي كل ما فيه هداية وأيضاً الدين الحق، فالرسالة تشتمل

على العقيدة والفكر والأخلاق والاجتماع والاقتصاد والسياسة وكل شؤون الحياة.

أهمية الأسوة.

تتجلى أهمية الأسوة والقدوة في كثير من الأمور نلخصها في ثلاث نقاط :

الأولى: فهم حدود تطبيق القيم.

إنّ رسالة النبي (صلى ا عليه وآله) التي بعثه ا بها تحوي مبادئ حقة وقِيَماً عالية إلى مجتمع جاهلي أو مجتمع لا يعي هذه المبادئ نتيجة لبيئته وظروف معيشته أو اعتناقه لمعتقدات وقيم مغلوطة، ليس من السهل عليهم حتى بعد دخولهم الإسلام أن يستوعبوا هذه المبادئ على مستوى السلوك العملي وكيفية تطبيقها على أنفسهم أو على غيرهم، وهنا يأتي دور النبي القدوة في الجانب العملي، ولولا وجود شخصية النبي (صلى ا عليه وآله) لما أمكننا فهم حدود وآليات تطبيق تلك المبادئ والقيم على سلوكنا، فالنبي (صلى ا عليه وآله) كان مجسداً للقيم في تطبيقها الدقيق ضمن إطار محدد وشرعي، ولولاه لما استطعنا أن نطبقها بطريقة صحيحة، فمثلاً مفهوم التواضع عندما يطرحه القرآن، ويسمع به من دخل الإسلام حديثاً ممن تكون له وجاهة اجتماعية يتصور أن التواضع لمن تكون له وجاهة مثله أو يكون حراً أو يكون له مال أو غير ذلك، لكن عندما يرى النبي (صلى ا عليه وآله) يطبق التواضع في كافة المجالات ولجميع طبقات المجتمع حتى للعبد والفقير سوف يستوعب التواضع في معناه الشمولي، فقد ورد عن الإمام الرضا (عليه السلام) قوله : {قال رسول ا (صلى ا عليه وآله): خمس لا أدعهن حتى الممات: الأكل على الأرض مع العبيد، وركوبي مُؤكفاً[10] ، وحلبي العنز بيدي، ولبس الصوف، والتسليم على الصبيان، ليكون سُنةً من بعدي}[11] ، نجد التواضع مستوعباً لمجالات متعددة في سلوك النبي (صلى ا عليه وآله)، ليُصبح سُنةً يتبعها الناس اقتداءً به، كما أوضحت ذلك آخر الرواية.

الثانية: القدوة حافز للتأسي.

القدوة الصالحة حافز يدفع الإنسان نحو التأسي بالرسول (صلى ا عليه وآله) من خلال قراءة سيرته وتتبع مواقفه وأخلاقه وسلوكه على كل الأصعدة، وهذا سوف يُشعرنا بالعزة والكرامة، ويدفعنا نحو التخلق بأخلاقه وسلوكه باعتباره مشروعاً تغييرياً متكاملاً للفرد والمجتمع، مع ملاحظة مقام النبي وعظمته، وقد ورد عن الإمام الباقر (عليه السلام) قوله: كان رسول ا (صلى ا عليه وآله) عند عائشة ليلتها، فقالت: يا رسول ا، لِمَ تُتعب نفسك وقد غفر ا لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: {يا

عائشة، ألا أكونُ عبداً شكوراً}[12]، فالنبي (صلى الله عليه وآله) بما لديه من ملكات وكمالات يُحفّز الآخرين أن يتبعوه ويقتدوا به.

الثالثة: أخذ العِبرة والعِظة.

القرآن الكريم طرح القدوة كمبدأ هام في التأثير على الغير بأسلوب جذاب، وقد لا يشعر القارئ أحياناً بالتأثر بتلك المواقف والسلوك، التي وردت في قالب جميل لقصص أو أمثال قرآنية، تبين جانب التذكير والاتعاض والعبرة، قال تعالى في الأمثال: {وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنّاسِ لَعَلّهُمْ يَتَذَكّرُونَ}[13]، وقال تعالى في القصص: {وَكُلاّ نّقُصّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرّسُلِ مَا نُثَبّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَذِهِ الْحَقّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} [14] ، فالقرآن طرح الكثير من قصص الأمم لأخذ العبرة والعظة والتذكر للمؤمنين والتأسي بالأحسن، قال تعالى: {الّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الّذِينَ هَدَاهُمُ اللّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ}[15].

الحاجة للقدوة في العصر الحاضر

في عصرنا الحاضر الذي ابتعدنا زمنياً عن عصر النبي (صلى الله عليه وآله)، ما أحوجنا إلى الأسوة الحسنة، التي تتطلب منا الرجوع قليلاً لما تركه لنا (صلى الله عليه وآله) من تُراث علمي وأخلاقي وسلوكي واجتماعي واقتصادي، ونسعى بجد واجتهاد لاستعادته من كتب السيرة والأخلاق ونعكسه في أخلاقنا وسلوكنا، خصوصاً أننا في هذا العصر نعايش تطوراً تقنياً هائلاً في كافة المجالات وعلى رأسها مجال الاتصالات المرئية والمسموعة، وهذا التطور لم يقف الإسلام ضده، بل شجع على كل تقنية جديدة تخدم الإنسانية بشرط أن لا تؤدي إلى ضرر شخصي أو اجتماعي أوديني، لكن المشكلة أحياناً في طريقة الاستفادة من هذه التقنيات، فليس من المقبول عقلاً وشرعاً أن يتأسى ويقتدي البعض بشخصيات تلك القنوات الفضائية وتصبح مثلاً أعلى له، ويفتخر بمجاراة أقوالها وسلوكها، ونفقد ثقتنا بديننا ونبينا، في الوقت الذي لازال عشرات، بل مئات الشخصيات الغربية التي تتحدث عن عظمة النبي (صلى الله عليه وآله) ودوره القيادي وشخصيته الصالحة للتأسي، وأنصح أخواني الشباب الأعزاء بمطالعة كتاب جيد في هذا المجال، هو"المائة الأعظم في التأريخ" للدكتور مايكل هارت، وقد ترجم أنيس منصور الكتاب بالعربية، وسماه " الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله" وسوف يفاجأ القارئ بما يتمتع به المؤلف من إنصاف كبير حيث يتحدث عن مائة شخصية عالمية مؤثرة، يضع النبي (صلى الله عليه وآله) في المرتبة الأولى من هذه الشخصيات التأريخية، ومع العلم أنه مسيحي، إلا أنه جعل نبي الله عيسى (عليه السلام) في المرتبة

الثالثة. وأخيراً لا بد أن نستشعر قوة الإيمان بالله والنبي الكريم واليوم الآخر والدين العظيم، وذلك من خلال قراءة سيرة النبي (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته الأطهار وصحابته الأخيار ومواقفهم الشجاعة وأخلاقهم وسلوكهم الرفيع حتى تتعزز ثقتنا بثقافتنا الإسلامية الأصيلة ورجالاتها العظام، وهذا سوف يدفعنا نحو الاقتداء بهم وتجسيدهم واقعاً حياً في سلوكنا.